محاضرة

في سينمار «دراسة الهوية: مصر نموذجاً»، الذي نظّمه فرعُ «المركز العربي للابحاث ودراسة السياسات» في بيروت، يوم الثلاثاء الماضي، تناول الباحث اللبناني الحلاقة بين الهوية الوطنية والحداثة في العالم العربي، والوطنية وبدايات دخول هذا المفهوم إلى الأدبيات العربية، والثورات التي دعت إلى دولة ووحدة عربية، وعوامل اللغة والدين والتاريخ.

قارن زيادة بين نموذج الحداثة الذي شهدته مصر منذ بداية القرن التاسع عشر، مع بناء محمد علي باشا لجيش حديث، وما ارتبط به من تعليم وحركة تصنيع، وما استتبع ذلك من تنظيمات إدارية تبلورت معها فكرة المدى الجغرافي لمصر، وبين إدارة حديثة عرفها لبنان مع تأسيس متصرفيّة جبل لبنان عام 1861، وما سبقها من تطوّر في المعاهد التعليمية والمدارس والصحافة والترجمة، وصلتها مع مفاهيم الحداثة.

كما أشار صاحب كتاب «المسلمون

خالد زيادة تواريخ الحداثة العربية وأفكارُها

في تشكّل الهويات الوطنية

خالد زيادة

محمود منير

تناول الباحث اللبناني خالد زيادة في سينمار «دراسة الهوية: مصر نموذجاً»، الذي نظّمه الثلاثاء فرعُ «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» في بيروت، بعض المفاتيح الأساسية حول مسألة العلاقة بين الهوية الوطنية والحداثة في العالم العربي، والوطنية وبدايات دخول هذا المفهوم إلى الأدبيات العربية، والثورات التي دعت إلى دولة ووحدة عربية، وعوامل اللغة والدين والتاريخ.

قارن زيادة بين نموذج الحداثة الذي شهدته مصر منذ بداية القرن التاسع عشر، مع بناء محمد علي باشا لجيش حديث، وما ارتبط به من تعليم وحركة تصنيع، وما استتبع ذلك من تنظيمات إدارية تبلورت معها فكرة المدى الجغرافي لمصر، وبين إدارة حديثة عرفها لبنان مع تأسيس متصرفيّة جبل لبنان عام 1861، وما سبقها من تطوّر في المعاهد التعليمية والمدارس والصحافة والترجمة، وصلتها مع مفاهيم الحداثة.

كما أشار صاحب كتاب «المسلمون والحداثة الأوروبية» إلى أن تعبير الوطنية برز عربياً منذ ستينيات القرن التاسع عشر، إذ نجده لدى رفاعة الطهطاوي في كتابه «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية» (1869)، كما نجده في العديد من محاضرات بطرس البستاني التي تناول فيها الوطن السوري والعروبة، حيث نشأت الوطنية في ظلّ عوامل مختلفة صاغت هذا المدى الذي يمكن اعتباره «الوطن»، ومنها الإدارة الحديثة، وتمثيل الأقاليم والمحافظات، وصولاً إلى الدستور. وبخصوص الدور الذي تلعبه الثورات، عاد إلى ثورة عرابي عام 1879 التي قامت ضد العناصر غير المصرية في الجيش المصري، كالشركس والأتراك، حيث ساهمت في بلورة وطنية ما، ثم ثورة 1919 التي ثبّتت ركائز الوطنية المصرية، وبين الثورتين أنشئ العديد من الأحزاب، وكلّها تدور حول فكرة الوطن المصري وفكرة شعب له سمات محددة.

ولفت صاحب كتاب «تطوّر النظرة الإسلامية إلى أوروبا» إلى أن فكرة العروبة في المشرق ظهرت وكأنها في تضادّ مع العثمانية، وهو ما لا نجد نظيره في المغرب، حيث كانت العروبة ذات اتصال وثيق بالإسلام، وحيث لعبت جمعيات دينية إصلاحية دوراً في نشوء الحركة الوطنية. وأوضح أن صياغة الفكرة الوطنية في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين كانت على يد المثقفين الذين كانوا على اتصال مع الثقافة الغربية عن طريق البعثات الدراسية في أوروبا والترجمات، وتعرّف هؤلاء المثقفون إلى التاريخ الإسلامي والحضارة العربية من خلال الباحثين الأوروبيين.

وتوقّف كذلك عند الاكتشافات الأثريّة في مصر ولبنان وسورية والعراق، التي تركت أثراً كبيراً في صياغة الأفكار الوطنية، وأوجدت أسساً صلبة تستند إلى العُمق التاريخي، فيما بقيت الحضارة الفرعونية تلعب دوراً في الهوية الوطنية المصرية (خلافاً لانبعاثات أخرى خفتت مثل الفينيقية في لبنان)، مع وجود تعقيد في التعامل مع التاريخ الأقرب، قياساً في التاريخ الأبعد، حيث تمّ تحييد دور الأسرة العلوية بعد حركة تموز/ يوليو عام 1952.

وبيّن السفير اللبناني الأسبق في القاهرة أن اللغة العربية لعبت دوراً مهمّاً في تحديد الشخصية الوطنية والهوية القومية، مع الفارق بين الأمريْن أو التنافر بينهما أحياناً، حيث شكّلت عامل توحيد لكنها أيضاً كانت عامل خلاف ونزاع في بعض البلدان، كما في العراق بين الكردية والعربية، أو الأمازيغية والعربية في المغرب، وكذلك الحماس الذي برز في فترة ماضية حول اللهجات الدارجة في مصر ولبنان ثم خفوته لاحقاً. ومع ذلك، تسلّلت العاميّة إلى المسرح والغناء، وبات الميل إلى استخدامها اليوم أوسع، بعد هيمنة الفصحى لعقود ماضية. وتمّ استبعاد مثل العراق ومصر. وحول الحالة المصرية، أشار زيادة إلى دور المؤرخين في نشأة الروح الوطنية، مثل عبد الرحمن الرافعي وسلسلة مؤلّفاته حول تاريخ مصر الحديث منذ دولة محمد علي، ومن قبله محمد صبري (المعروف بالسوربوني)، معتبراً أن ثورة 1919 كرّست الوطنية المصرية ولم تعد الفكرة القومية العربية موضع نقاش، حيث تمّت صياغة هذه الوطنية في الفترة التي تُعرف بـ«الفترة الليبرالية» مع طروحات حسين مؤنس وشفيق غربال وغيرهما ممن تأثروا بالعلوم الإنسانية الحديثة وحاولوا استيعاب الحضارات السابقة للوصول إلى سياق تاريخي مشترك.

وأشار المحاضر إلى أنه رغم اكتشاف مصر لموروثها الفرعوني قبل حوالي مئة عام فقط ـ إذ لم يتبنّه المثقفون المصريون لحضاراتهم القديمة إلّا بعد الحرب العالمية الأولى، في حين اكتُشفت مقبرة توت عنخ آمون عام 1922 ـ إلا أنه أصبح جزءاً أساسياً ومكوّناً في هويّتها وتاريخها.

> برزت فكرة الوطنية عربياً منذ ستينيات القرن التاسع عشر
>
> قراءة مقارَنة في نماذج الحداثة في أكثر من بلد عربي

الدين، بحسب المحاضر، من عناصر الهوية في المشرق العربي، بداية القرن العشرين، من دون الذهاب إلى تبنّي علمانية مطلقة. وظلّ الدين محور نقاش حول مقدار ما يلعبه من دور في تحديد الهوية الوطنية، كما كان أحياناً موضع تساؤل، خصوصاً في البلدان التي تضمّ مكوّنات مختلطة، في مداخلته، أوضح الباحث السوري محمد جمال باروت أن «الهوية المتجانسة عبارة عن خرافة لا أكثر، وحتى الهويات التي تعتقد نفسها متجانسة نجد عند تفكيكها أنها تقوم على نظم رمزية أنثروبولوجية وثقافية مركبة ومتعدّدة، فإذا نظرت إلى الهوية التونسية تجدها في الظاهر هوية متجانسة لكن إذا ما فككتها ستجد أنها جماع عدد هائل من الأنظمة التي تشكّلها، وأظن أن هناك دماً ينطبق أيضاً على حالة مصر»، لافتاً إلى أن هناك فرقاً ما بين الإثنية، وهي جانب من الهوية، وبين قومنتها، فالقومنة هي التي تعطي معنى سياسياً للإثنية. ومن جهة أخرى، فإن القومية الفرعونية أقرب إلى القوميات الأركيولوجية التي بعثتها حركة الاكتشافات الأثرية، ثم أسقطت عليها الخيالات الأيديولوجية والسياسية المعاصرة وتمّت قومنتها.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

بطاقة

يناقش الباحث اللبناني خالد زيادة في كتبه الحداثة العربية والعلاقة بين الشرق والغرب وتشكّل المدينة اللبنانية، حيث أصدر عدّة كتب، من بينها: «الصورة التقليدية للمجتمع المدني، قراءة منهجية في سجلات محكمة طرابلس الشرعية» (2008)، و«العلماء والفرنسيس» (2008)، و«تطور النظرة الاسلامية الى اوروبا» (2010)، و«المسلمون والحداثة الاوروبية» (2010)، و«كاتب السلطان: حرفة الفقهاء والمثقفين» (2020/ الصورة).

يوميات

هذا ما يحدث لك ومعك

لو كان ليوم أمس أُذنان

نام ليلته كما ولن يعرف احد كيف قضاها. اخبرتهم كلّهم. ورجوتهم الاّ يُثقلوا عليه، فالصباح رباح. وفي الصباح، قدّم الجميع تعازيهم الصادقة

باسم النبريص

أن تعيش وسط سبعين مريضاً بالسرطان، أن تعرف تفاصيل يومياتهم مع المرض، أن تصاحبهم وتُرافقهم على مدار اليوم والساعة، ألّا يغيبوا عن ناظريك سوى في وقت النوم، أن تحسّ بهم كما تحسّ بيديك ومعدتك ورجليك، أن تُحبّهم، أن تفهمهم، وفوق ذلك أن تُودّع بعضهم إذ يموت... يا لها من تجربة، يا له من جوّ.

■■■

أفكّر فيهم: في الدهاليز والكهوف التي يعبرونها كلّ ليلة. أفكّر فيهم: في الأعماق والطوايا التي يصلونها كلّ نهار. أفكّر فيه، وفي تاريخه: إله المغيّبين ذاك. أفكّر في: ماضيّ ومستقبلي. كم أودّ لو أرجع بطاقتي منذ الآن. الواحدة ولا ينامون. الثالثة ولا ينامون. الخامسة ولا ينامون. فكيف لكلبٍ أن ينام.

■■■

مساء هذا اليوم، كنتُ جالساً في الصالة تحت مع لؤي ريان، ودخل عليكم جارك الستيني أبو رامي، كلمك وتلعثم، فحدست سّراً، قمتُ سألته، ولِمْ تحتج لجواب. احتضنته وقبّلت جبينه ورأسه ويديه: البقية في حياتك، يسلم خاطرك. ساعصد وأخبرهم. فرجال أنه متعب، ولا داعي. صعد الكهل المسكين، ونام ليلته، كما لا يعرف ولن يعرف أحد كيف قضاها. أخبرتهم كلّهم. ورجوتهم ألّا يُثقلوا عليه، فالصباح رباح. وفي الصباح، قدّم الجميع تعازيهم الصادقة، وسط بحر من الكآبة والوجوم، لتخرجوا جميعاً، من عليه جلسة كيماوي أو إشعاع، ومن لا جلسة له، فتدهبون لباحة المطبخ، وتوزّعون أخاه الشيخ ، محمولاً في سيارة إسعاف، تحت سماء معتمة ومطر خفيف، لمثواه الأخير في غزة. مع السلامة، مع السلامة يا طبيب. وتجتاز الإسعاف بوابة المشفى الخارجية، وبها اثنان: الرجل وجثة، بينما دخلاها قبل أقل من شهر: اثنان، يمشيان على أقدامهما؛ ويضحكان معنا، ويشاركاننا كل تفاصيلنا الصغيرة. فيا لها من حياة، ويا له من مصير.

■■■

والله لو كان في يدك، لجعلتَ هذا العالم أقل قساوةً وضراوةً. لكنّ القدر والأنظمة والمجتمع لا يقبلون هذا التغيير والتبديل، ولا يقبلون أن يخرش عليهم واحدٌ من ورائهم.

■■■

كم تشعر بالوهن الجسدي، وأنت في معمعان هذه الأجواء والهلاوس السوداء. لقد هزمك جوُّ المرض بالضربة القاضية. قدماك تجرّهما جرّاً، ورأسك نهب الصداع. ورغم تظاهرك بالتماسك، خارجياً على الأقل، إلا أنك محبطٌ وواصلٌ إلى حواف السوداوية والعدم الصريح. حتى أن العالم، الآن، لم يعد في نظرك يتكوّن إلا من المرضى والمرشحين للمرض. ولا مكان فيه لطفولة بريئة أو كهولة نبيلة إلخ إلخ من هذه الهلاوس البوتوبية ذات المنشأ الريفي، التي لا تعيش سوى في رؤوس البلهاء وصغار الشعراء.

■■■

لو كان ليوم أمس - يوم المصائب المتتالية منذ الصباح - أذنان، لفركتهما بحصوتيْن، كما كان يفعل معنا أساتذتنا في المرحلتين الابتدائية والإعدادية. لكنه مع شديد الأسف، لا يملك هاتين الأذنين، لأنه يوم واقعي، وليس مثل أربعاء الروائي يوسا، يوماً روائياً شهيراً، يحمل عنوان أحد فصول روايته «امتداح الخالة».

■■■

إنك، بلغة أحد أبطال يوسا، دنيوي

طول العشرة مع الكلمات يغيّر ويبدّل من الشخص والشخصية

إلى أقصى الحدود، ولكن ثقافياً وليس في الواقع. ولا أظن أن ثمة أديباً هو هكذا في الواقع، فطول استخدام الكلمات، وطول العشرة معها، يجعلان الأديب، أقرب إلى الصوفي منه إلى كلب الدنيا. ومع أنك علمانيٌ تماماً، وتكره ما يُشاع ويُقال عن الصوفية، حتى أنك لا تحتمل مجرّد القراءة عنها، وذلك لشيوعها وابتذالها عربياً، وبالذات في النصف الأخير من القرن، إلا أنك تومن بأن طول العشرة مع الكلمات يغيّر ويبدّل من الشخص والشخصية. إن غالبية من لهم علاقة فيزيقية مع الكلمة، يصبحون، أشفّ وأنقى من كبار المتصوّفين! لمَ يحدث ذلك؟ لا تعرف على وجه التحديد والتأكيد. إنما هذا ما يحدث لك ومعك على الأقل، ومع غيرك على العموم.

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا، والنص من يومياته في القدس المحتلة عام 2009)

صورة جوّية لمدينة القدس المحتلة عام 2005 (Getty)

إضاءة

شهر التراث بعض الرسميات لا غير

ثلاثة عقود من العودة إلى نفس النقطة

من المدينة العتيقة لـ توزر، جنوب تونس (Getty)

> لا تزال وزارة الثقافة التونسية حريصة على تنظيم «شهر التراث» في مثل هذا اليوم من ثلاثة عقود دون ان يغيّر في رؤيتها للتراث وكيفية تثمينه

تونس ـ ليلى بن صالح

على مستوى الخطاب الرسمي، لا شكّ بأن التراث يأخذ مكانة أساسية في تونس، حيث نجد عناية ذات أبعاد ثقافية وتشريعية وسياحية لا يمكن إنكارها. غير أن هذا الحرص الرسمي على التراث لن نجد له الكثير من التمظهر في الواقع؛ يكفي أن ننظر في شبكة المتاحف التونسية أو المواقع الأثرية حتى نكتشف رثاثة الكثير منها وغياب إشعاعها ونشاطها، وكذلك الأمر لو نظرنا في الشقّ الآخر من التراث؛ اللامادي منه، والذي يعاني من سوء توثيقه وإهدار الكثير منه عبر الإهمال وغياب الوعي بقيمته.

من اللافت أن وزارة الثقافة التونسية حريصة على مجموعة من التظاهرات التي تثمّن التراث بغض النظر عما يدور على أرض الواقع، وأبرز هذه التظاهرات «شهر التراث» الذي تنطلق فعالياته غداً الأحد 18 نيسان/ إبريل وتتواصل حتى 18 أيار/ مايو 2021.

هذه هي الدورة الثالثون من التظاهرة، وستقام تحت شعار «تراثنا رأسمالنا» وقد أشار أحمد شعبان، مدير عام التراث في وزارة الثقافة، في فيديو ترويجي، إلى أن هذا الشعار يؤكّد على إمكانية «توظيف التراث وتثمينه واستثماره كمصدر من مصادر الثروة الوطنية، وإمكانية مساهمته في إنعاش الاقتصاد الوطني»، كما أشار إلى أن هذا الشعار يتضمّن دعوة ضمنية لإشراك الأفراد والمجتمع المدني إلى جانب أجهزة الدولة في العناية بالتراث.

لكن هذه الدعوة لا تستند إلى مسوّغات كثيرة على أرض الواقع، من ذلك أن التظاهرة تنطلق دون برنامج واضح، وهو ما يفرز ضبابية وبحصر تلقي ما تقدّمه التظاهرة في فئة قليلة من الجمهور. ولو عدنا بالذاكرة إلى الدورات السابقة لن نجد أن «شهر التراث» قد حقّق إشعاعاً حيث يبدو هامشياً ضمن دورة الحياة الثقافية على الرغم من المدة الزمنية التي يستغرقها.

> يبدو «شهر التراث» تظاهرة هامشية ضمن دورة الحياة الثقافية

تبرّر وزارة الثقافة موعد إطلاق التظاهرة سنوياً في 18 نيسان/ إبريل بكونه تاريخاً يقابل «اليوم العالمي للمواقع والمعالم الأثرية» وينتهي «شهر التراث» في 18 أيار/ مايو سنوياً، وهو اليوم العالمي للمتاحف. يوحي ذلك بأن «شهر التراث» مندرج ضمن روزنامة عالمية، لكن واقعه على عكس ذلك تماماً فهو يجد صعوبة حتى على مستوى الإشعاع المحلي.

مرور عقود ثلاثة على إطلاق تظاهرة «شهر التراث» لم يتجلّ في تصوّراته وبرامجه بعد.

لا تزال التظاهرة أقرب إلى محاولات تجريبية، وهي محكومة بحلقات بيروقراطية وبرؤية فولكلورية باتت عاملاً من عوامل تنفير المتلقّي، سواء بتلك العروض الروتينية للمنتجات الحِرَفية أو بتنظيم الندوات التي يتحدّث فيها المتخصصون في التراث في ما بينهم.

لقد جرت مياه كثيرة تحت جسر الذائقة الجماهيرية في ثلاثين عاماً لكن الفهم الرسمي لتثمين التراث ظلّ على حاله. وفي نفس الفترة الزمنية تغيّر مفهوم التراث، فكراً وممارسة، في حين أن تصوّرات العناية به لا تزال تراوح مكانها.

فعاليات

حتى الرابع والعشرين من الشهر المقبل، يتواصل معرض **«اللاجئون: فرار قسري»** في «متحف الحرب الإمبراطوري» بلندن والذي افتتح منتصف آذار/ مارس الماضي. يضمّ المعرض أعمالاً للفنانين **شورش صالح**، **وغريس شويندت**، **واندرو سيربيتيتي**، الى جانب صور فوتوغرافية وشهادات حيّة لعدد من اللاجئين.

كيف ينظم القانون البناء والتطوير في القاهرة التاريخية؟ عنوان الندوة الافتراضية التي تنظّمها «الجامعة الاميركية» في القاهرة عند الثامنة والنصف من مساء الثلاثاء المقبل. تطرح الندوة التوفيق بين تطوير يخدم سكان القاهرة القديمة ويدعم الانشطة التجارية وبين الحفاظ على معالمها الاثرية. ويتحدث خلالها المعماريان **مي الابراشي** و**احمد منصور**، ويديرها الباحث **مصطفى شعت**.

يُعرض عند السابعة والنصف من مساء الجمعة المقبل في «البيت العربي» بمدريد فيلم **الارض** للمخرج المصري **يوسف شاهين**. الفيلم الذي أُنتج عام 1969، تدور احداثة في احدى القرى المصرية التي يثور فلّاحوها بعد تقليل حصتهم من المياه بسبب تحويل الري الى ارض احد كبار الاقطاعيين، لكن الحكومة تقمع ثورتهم.

تعقد «مكتبة الاسكندرية» عند الحادية عشرة من صباح بعد غدٍ الإثنين محاضرة بعنوان **تجديد التراث الإسلامي في العصر الحديث** يقدّمها الباحث **حسين سليمان**. يتناول المحاضر تطوّر الطروحات الفكرية حول التراثية الاطروحات الفكرية منذ جمال الدين الافغاني ومحمد عبده (الصورة)، وصولاً الى حسن حنفي ونصر ابو زيد.